إلهي لا أنفع له...

مديح المجانية

الأب
شارل دُلِيه
اليسوعيّ

دار المشرق
بيروت

إلهي لا أنفعلُهُ...

مَديحُ الحجّانيَّة

طُبع هذا الكتاب بمساهمة عائلة جرجي نعمة اللّه عقّاد

الأبُ
شارل دُلِيه
اليسوعيّ

إلهي لا نفعله...

مديحُ المجّانيّة

نقله إلى العربيّة

الخوري يوحنّا الحلو

طبعة ثانية

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ٢٥/١١/١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثانية ٢٠٠٢

دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٠٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-4974-5

التوزيع: **المكتبة الشرقيّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

ظهر هذا الكتاب بالفرنسيَّة تحت عنوان:

Charles Delhez S.J.
Ce Dieu inutile...
Eloge de la gratuité
Editions LUMEN VITAE, Bruxelles
Editions FIDÉLITÉ, Namur
1998

«إثباتُ وجود الله لأنّه نافع وإنكاره لعدم جدواه نقيضان يتساويان في الخساسة»
الأب فرنسوا ڤارِيُون

إلهي لا نفع له...

أَليس في هذا العنوان بعض التجنّي؟

لقد تقادم الزمن على الله في أيّامنا فأصبح في متاحفنا بين الأشياء التي بَطُلَ استعمالُها، والذين لا يزالون به يؤمنون يحاولون تبرير موقفهم ليظهروا بين الناس سليمي الضمير...

في حين أنّ أفضل تبرير لله هو أن لا نفع له.

وهل يقوى الإنسان على تخطّي النافع باتّجاه المجّان؟

تملّكتْني، على مدى سنوات، فكرة مشروع يقضي بأن أعرض الشعور المسيحيّ الأعظم، لقناعتي بأنّه يلتقي الإنسان المعاصر في العمق الذي يتوق إليه. وإنّي، بعيدًا عن كلّ مجاملة، لأرى أنّ المسيح يرسم طريقًا صعبًا، الوحيد الذي يتوافق مع خطانا.

إن كنتُ أُومن بالله فلا يسعني إلاّ أن أرتضيَه أو أتصوَّره أعظم ممَّا يمكن لعقلي أن يفكّر فيه أو يتخيَّله. وأشدُّ ما في وجه الله جاذبيَّة أكثرُه حقيقة، وهو الوجه الذي عرفته، على ما أظنّ، في الإيمان المسيحيّ.

وتجاوبًا مع قناعتي المزدوجة هذه، أراني مندفعًا في أن أكتب إلى قرّائي لكي أطلعهم على الرجاء الكامن في صدري.

عليّ أن أعترف بفضل إخوانٍ لي مشاهير أخصّ بالذكر منهم الآباء فرنسوا فاريون وكارل راهنر وبيار تيّار ده شاردان الذين تبنّوني، فبرزت كلماتهم عفوًا تحت قلمي لِمَا كان لهم من شديد التأثير فيَّ، فحرَّك متّي الأعماق وفجَّرها ينابيع.

وأُقدِّم هذا الكتاب إلى الذين ساعدوني على اكتشاف أفراح الصداقة، علَّهم يجدون فيه ما أخذناه وعشناه معًا بعمق، وعليه يُشكرون... كما أُقدِّمه إلى والديَّ اللذَين سلَّماني مجَّانًا ما أخذاه مجَّانًا...

الجزء الأوَّل

سّر الإنسان سّر الله

صبيّ على شاطئ البحر يلهو، بينما الأمواج تلهو به. لقد حفر في الرمل حفرة صغيرة وراح ينقل مياه البحر إليها.

متى تُراه ينتهي من عمله فيفرغ البحر وتمتلئ الحفرة؟ ومتى يستريح من عمله ويغتبط بأنّه انتهى منه؟

تلك رواية معروفة قصَّها علينا القدِّيس أوغسطينس، فبينما هو يتنزَّه على الشاطئ ويتأمَّل مفكِّرًا في سرّ الله، متمنيًّا لو أنّه يدرك الله وغوره الثالوثيّ، فَهِم أنّ الله لا يُدرَك ويستحيل التعبير عنه بصُوَر وبيانات، كما يستحيل نقل البحر إلى حفرة صغيرة على الشاطئ.

عجيب هو البحر وغريب، العين تعجز عن إدراك حدوده ولا تستطيع الأمواج أن تحرِّك قعره الهادئ إلاَّ على سطحه. تلك هي حال الله.

على أنّ تلك الحفرة الصغيرة في الرمل عجيبة هي أيضًا لكونها، على ضآلتها، تتوق إلى ابتلاع اللامحدود، ولأنّها لا تشبع، وكأنّها تفترس الأوقيانس. ذاك هو الإنسان.

وصولاً إلى سرّ الله، نقف منذهلين أمام سرّ الإنسان الذي هو سرّ الله عينه.

الفصل الأوَّل
في صميم المجَّانيَّـة

للوصول إلى السرّ الإلهيّ، نقفُ مندهلين أمام السرّ البشريّ، لأنّهما واحد. ومع الكائن البشريّ يبرز مخلوق لا يقتصر همُّه على مشاكل البقاء، فيدخل العيدُ والفنّ والحبّ في الخليقة، وتصبح تلك النشاطات اللانافعة **والمجَّانيَّة** العلامة المميّزة للإنسان ولِما فيه من قلق، ونتساءل: ماذا لو كان الله التَرَف الأسمى، الذي لا نفع له وهو في الوقت نفسه جوهريّ؟ ماذا لو كان أسمى عمل هو ما يتمّ في تلك الهُنَيهات النادرة من العبادة، حيث نتخلّى عن كلّ ما هو قابل للكسب ونروح نُنشد معجَبين بالسرّ الإلهيّ في أُفق حياتنا؟ أجل، فإنّ الله موجود وحسبنا أن يكون موجودًا.

الإنسان قضيَّة

عندما يتعلَّم الولد النطق، يتمرَّن عليه بمساعدة مَن يحيطون به فيعطي اسمًا لكلٍّ من الأشياء التي تُعرَض له فيتمكَّن، شيئًا فشيئًا، من التمييز بين شجرة وزهرة، وبين فراشة وعصفور، وبين الأحمر والأزرق، ليصبح لكلّ شيء اسمُه ولكلّ اسم مدلولُه.

وفي يوم من الأيَّام، هوذا اسم غريب يدخل في كلامه، قد تكون أمّه أوحت به إليه ولربّما أبوه، إلاَّ إذا كان قد حفظه في المدرسة، وهو اسم الله.

إنّها لفظة غريبة، عجيبة، لا شيء يدلّ عليها ولا يسعه، مهما فتَّش حوالَيه وتطلَّع، أن يجد ما يستحقّ هذا الاسم. لفظة «الله» تشغل بالنا أكثر من أيّة كلمة أخرى في قاموسنا لأنّها لا تعبِّر عن أيّ شيء يقع تحت حواسّنا ولا تحمل في ذاتها بيِّنة عنها ولا تحتوي على مضمون جليّ وليس لها تحديد واضح، بل هي سرٌّ في لغات العالم قاطبة. هي نقطة استفهام وسؤال جوهريّ في صميم حياتنا البشريَّة، أنَّى كنَّا في العالم وأيًّا كانت ثقافتنا.

من المفهوم أنّ مَن ينظر إلى النهر يحاول أن يعطيه اسمًا ليتمكَّن من التحدُّث عنه إلى الآخرين وتنظيم عمليَّة الصيد فيه. وإذا سيطر الخوف على إنسان، يجد وسيلة يسمِّي بها ذلك الشعور بالخوف، بغية أن يشاطره

الآخرون شعوره. ولكن، أمام أيّ حدث أو شيء اضطرَّ الإنسانُ إلى استنباط لفظة «الله» واللجوء إليها؟

تبرز كلمة «الله» عندما يتساءل الناس عن معنى وجودهم، وهذا يعني أنّ الإنسان ليس منغلقًا على ذاته، وفيه ثغرة ينظر من خلالها إلى البعيد ويتساءل. وإنّه ليس أسير ذاته، بل فيه زفرة وسؤال وأمل ومعاناة، وكلّها يدلّ على وجود آخر يختلف عنه.

لفظة «الله» تعبِّر سرًّا عن مسيرة البشريَّة بحثًا عن أصلها وغايتها وكأنّها أثر لجرح لم يندمل، ناتج عن كون الإنسان مرتبطًا بغيره وآخر يسيِّره.

إنّها السؤال والجواب معًا. وأهمّ ما فيها، لا أنَّ الإنسان يطرحها على ذاته، بل أنَّ الناس، سواء أكانوا مؤمنين أم ملحدين، يطرحون السؤال عينه حول لفظة «الله» ويختلفون في الجواب.

إنّ الإنسان الحقيقيّ الذي يتأمَّل ذاته ينتقل دومًا من مرحلة التأمُّل إلى مرحلة التساؤل، بدءًا بهذا الذي فيه يكتشف أنّه سرّ لا يسبر له غور، قائلاً: مَن أنا؟ من أين أتيت؟ وإلى أين أذهب؟

يبدأ التفكير الصحيح عندما أتساءل عن سبب تساؤلي. مَن أنا كي أتساءَل؟ ولِمَ لا تكون الحياة بدون هذا التساؤل؟ إنّ النظر بجدِّيَّة إلى وجودي كإنسان لا يعني التهرُّب من قضيَّة وجودي والإبقاء على الثغرة مفتوحة.

«إن لم يراعِ الإنسان سرّ ذاته، فكلامه عن سرّ الله جدالٌ لفظيّ وحسبُ. ولكن يجب احترام الذين يعشقون ما هو خاصّ بالإنسان ويفشلون في تسمية البُعدِ الإلهيّ، الذي يرونه في هذا الإنسان، «الله»»[1].

(١) فرنسوا ڤاريون - Francois Varillon, *L'humilité de Dieu*, Paris, 1974, p. 44.

ليس للعلم أن يطرح تلك الأسئلة المصيريَّة لأنّ عمله ينحصر في داخل هذا الكون تعرُّفًا إليه وتنظيمًا له. فالعالِم يمحِّص الكون بدقَّة دون أن يجد في عمله جوابًا على معنى الحياة ولا يوفِّر له عمله أدوات تؤهِّله لأن يطرح السؤال، بيد أنّه، بصفته إنسانًا، ينتقل شيئًا فشيئًا من غرابة إلى أخرى ويتطلَّع معجبًا بهذه الطبيعة المتنامية في الغرابة حتّى اللامعقول، كلّما تناءت حدود اللامعقول. إذ ذاك يتوصَّل إلى طرح السؤال على ذاته عن العالم وغايته والعلم الذي يدرسه والهدف منه، لأنّ ذاك النظام الجبَّار يخلو في صميمه، على ما يبدو للوهلة الأولى، من أيَّة غاية.

لِمَ هذا العطاء المفرط؟ ولِمَ هذه الرحابة في العظمة والدقّة في النمنمة؟ الجواب غائب ولا داعي لتلك التحفة، على ما يبدو، ولا مبرِّر لها واللوحة خالية في أسفلها من أيّ توقيع.

بالحقيقة، ليس العلم مؤهَّلاً لأن يعطي جوابًا ولا لأنّ يطرح السؤال، ومهما ترامت حدود مملكته، فلن يتمكّن، ولا بواسطة عِلمَيْ النفس والاجتماع، من أن يصطاد الإنسان بشباكه. ذلك أنّ السرّ كامن في قلب الإنسان الذي لا يمكنه أن يكون موضوع العلم، لأنّه هو ربّ العلم وواضعه بحيث يفوته دومًا جزء منه، وهذا الجزء هو محور السؤال ليبقى دومًا وللأبد ذلك الذي يسأل، والناحية التي لا يمكن رؤيتها، والطاقة التي تعطي معنى من لا معنى له، وهو كائن بوفرةٍ في العالم. إنّ لفظة «الله» في كلامنا هي الأثر الذي يتركه ذلك التساؤل الدائم التكرار.

لقد مات نيتشه

لو أنّ لفظة «الله» اختفت، لَمَا استطعنا أن نستنتج من خلال ذلك أنّ الله غير موجود، لأنّ الإعلان بصراحة عن هذا الأمر لا يزال يستلزم استعمال اللفظة المختفية. إنّما نتصوَّر يومًا تمّحي فيه اللفظة والسؤال الذي

تعنيه من مفرداتنا، فلا يسعنا أن نستنتج أنّ الله قد مات، بل بالعكس أن نستنتج أنّ الإنسان هو الذي مات، لأنّ لفظة «الله» تدلّ على أنّ وجودنا، بنظرنا، هو سرّ. يختلف الإنسان عن الحيوان لكونه وحده يتساءل عن المعنى الأخير لحياته. ويوم تمَّحي هذه اللفظة، فهذا يعني زوال السؤال وموت الإنسان، إذ من المستحيل على الإنسان أن يخنق السؤال ويظلّ إنسانًا.

في أيّار ١٩٦٨، خطّ أحدهم بالطبشور على جدران السوربون التي اهتزَّت تحت ضغوط الطلاَّب الرفضيِّين: «لقد مات الله»، ولقد وقّعها نيتشه الفيلسوف الألمانيّ الذي عاش في أواخر القرن الماضي. بيد أنّ مجهولاً أضاف إليها: «نيتشه مات»، تحت توقيع الله. نكتة طريفة تذكِّرنا بأنّه ما دامت اللفظة موجودة وأنّه يمكننا أن نكتبها على جدران مدننا وفي ديناميسنا المظلمة، فيبقى السرّ الذي يعجز الإنسان عن محوه وتختفي الأشخاص.

الخطوة الأولى على الطريق إلى الله هي أبدًا سؤال قد يمكن خنقه. إنّ ذهنيَّة التقنيِّين والنفعيِّين تمانع في التوقُّف عند قضيَّة وجودنا، وبدلاً من أن نتساءل عن الغاية من وجودنا، نتساءل بقلق عن كيفيَّة بقائنا، وسرعان ما تصبح الحياة قطارًا للعمل والنوم، بيد أنّ النظر بجدِّيَّة إلى طبيعتنا البشريَّة يُدخلنا عتبة السرّ.

لسنا نصبح مسيحيِّين لمجرَّد قبولنا لفظة «الله»، إذ إنّ هذه القضيَّة كامنة في صميم كلّ إنسان بمثابة حفرة في حقل تأكيداته. الله هو التساؤل الذي يفتح شقًّا في ما لدينا من التأكيدات السهلة والثابتة، بيد أنّ تلك اللفظة ينقصها الوجه، وهي أشبه بفراغ في وسط نشاطاتنا وفسحة في قلب انشغالاتنا وصفحة بيضاء اختلطت بتحديداتنا وبراهيننا. إنّها انعكاس جيِّد لِمَا ترمي إليه، أي إلى الحقيقة السرِّيَّة وغير الموصوفة، الصامتة والسحيقة الغور، التي لا يمكن لعينٍ أن تراها ولا لأذنٍ أن تسمعها.

كان العهد القديم يحرِّم التلفُّظ باسم الله الخاصّ، ولم يستطع إيليّا أن يراه إلاَّ مَن الخلف. أمّا الإيمان المسيحيّ فإنّه يبدأ عندما نتجاسر فنصدِّق أنّ ذاك السرّ قد كشف لنا وجهه عند أُفق حياتنا في المسيح، يسوع الذي هو من الناصرة.

الجوهريّ غير نافع!

الإنسان موجود... ذاك هو الأمر الأشدّ غرابة... تلك هي المسألة الأولى والسرّ الأوَّل... زهرة سريعة العطب لا تلبث أن تذبل. تتفتَّح ذات صباح فتنمو، ثمّ تنشر ألوانها ليفرح بها الآخرون.

هل من فائدة له؟ ولأيّ شيء ينفع؟ كلاّ، إنّ ظهوره مجّانيّ حتمًا، مجرَّد بذخ، إضافي، وإفراط لا شيء يبرِّره، وجوده غير ضروريّ، ومَن ذا الذي يحضر ليبدي أسفه عليه؟

يكمن سرّ الإنسان في أنّه غير نافع ولا شيء يفرض حضوره.

قال سارتر: «ها إنّ الكون بأسره يبدو عديم الفائدة أمام الأبديَّة»، بيد أنّ الإنسان الذي يظهر في مجَّانيَّة بحتة، هو نفسه يبدع المجَّانيَّة. وأسمى ما فيه من نشاط يتَّسمُ دومًا في زاوية منه باللانفعيَّة.

همّ البقرة التي ترعى في حقل أن تجد دومًا العشب الأخضر ولا همَّ لها سوى أن تأكل لتعيش.

يوجِّه الإنسان جزءًا فقط من وقته نحو مشاكل البقاء ويتضاءل هذا الجزء تدريجيًّا. إنّه يعمل الضروريّ حفاظًا على الحياة. أمّا الباقي من نشاطه فلا ينفع شيئًا وهو أشبه بالهَدْر.

كم من وقت ونشاط يكرِّسه تهيئةً لعيد! تنضَّد الصحونُ الصغيرة في الكبيرة وتقدَّم أنواع الأطعمة البسيطة بدقّة متناهية، وتبتهج الأعينُ بما

يعرض من أنوار وزهور، في حين أنّ الموسيقى تشغف الآذان، وينقضي الوقت تباعًا في الأحاديث والرقص والأغاني... وما هي إلاَّ ساعات حتّى تصبح تلك النشوة العارمة ذكرى... وهل ذاك نزق؟ أجل، إنّه لنزق بشريٌّ مفرط. وبما أنّ العيد شأن إنسانيّ، فهو مجَّانيَّة بحتة واغتباط بحضور مشترك... ليس للحيوانات عيد ولا محلّ لديها لغير النافع.

كلّما كان لنشاطٍ معيَّن ناحيةٌ لا نفع لها، كان حقًّا نشاطًا بشريًّا، وكلّما اتَّخذ له محلاً في سجلّ المجّان، لامَسَ الجوهريّ أكثر فأكثر، ولربّما يقول الأمير الصغير: «الجوهريّ غير نافع».

الفنّ ذروة النشاط البشريّ. ضخمٌ الوقت الذي يتطلَّبه فنَّانٌ لكي يرسم لوحة. ولِمَ الانكباب على رسم باقة من الزهر أو الشمس عند المغيب أو وجهٍ ما، ما دام، حول الرسّام، الكثيرُ من ذلك؟ يستلزم تحضير سمفونيَّة معيَّنة أيَّامًا طويلة، وإذا بها تُعطى في ساعة من الزمن، ويعود كلّ إنسان إلى بيته صِفرَ اليدين، كما دخل.

عندما يعمل فلاَّحٌ، يتمكَّن أن يملأ حاصله قمحًا، أمّا الفنّ فليس منتجًا، في حين أنّ ما لا نفع له ليس باطلاً وغير ضروريّ، لأنّ النفس تستنشق الفنّ.

أحبّ باقات الزهر كثيرًا. ولكن لماذا اقتطعت إحدى الأيدي تلك الزهور من حديقة وأمضت وقتًا طويلاً لتضع كلّ زهرة في مكانها، آخذة بعين الاعتبار تناغم الأشكال والألوان فيها؟ يمكن للإنسان في اليابان أن يحصل على إجازة في الفنّ الزهريّ...

الإنسان هو العين المتطلِّعة إلى الطبيعة. بمعزلٍ عنه قد لا يعرف أحدٌ جمال زهرةٍ، وبمعزل عنه لا توحِّد الأزهار جمالها في إناء، وبمعزلٍ عنه لا ينتشي أحد بجمال الخليقة الـفيَّاض.

الفنّ والحبّ

للفنّ والدين تماذج. ولَكَم أوحى بتحف فنيَّة رائعة! الإنسان هو ذاك الحيوان المتديِّن الذي تساءل منذ فجر وجوده عن السرّ الذي يغلِّفه، فوجد في الفنّ مجالاً للتعبير عن الضيق وما يُثير لديه من أسئلة، فيترجم إيمانه ورجاه.

لقد لاحظ علماء الآثار أنّ آثار البشريَّة مشتركة مع آثار المعتقدات الدينيَّة، وبخلاف الهياكل العظيمة الحيوانيَّة، وُجدت العظام البشريَّة في مدافن مزخرفة، مدفونة وفقًا لطقوس دقيقة، وهذه هي الإشارة الأولى إلى اللانفعيَّة التي عُرف بها «الإنسان العاقل» «Homo Sapiens».

تأمَّلوا في كاتدرائيَّات الأجيال الوسطى التي تتغنّى بأسمائها ذكرياتنا، على مثال كاتدرائيَّات باريس وشارتر ورامس وليون وميلانو وكنتربري وسلمنكا وبورغس وسواها... رجال جُنّوا بالله فنقشوا في الحجر جنونهم وحسّهم بالمجّانيّ. على مدى سنوات اقتطع بنّاؤو الكاتدرائيَّات الرخام وحفروا التماثيل ورفعوا الأعمدة وبنوا القباب وجهّزوها لكي تنطلق. وتزاوجت فيها الأبراج والقناطر وقباب الأجراس والدعمات والأقبية في أشكال منسجمة. إنّ تلك الكاتدرائيَّة حجارة مخرَّمة في مدننا، ترتفع إلى ذلك الذي اتَّخذ من السماوات عرشًا له ومن الأرض موطئًا لقدمَيه، وتكرّر قولها للإنسان إنّ موطنه فوق، وليس له أن ينغلق على ذاته في إطار النافع والمفيد لئلاّ يفقد ما يجعل منه روح الكون.

ماذا تنفع المحبَّة والصداقة؟ لا شيء. الحبّ هو أن يُضيِّع الإنسان وقته مع صديقه وفي سبيله. لا يسأم كائنان يتحابَّان بالصمت جنبًا إلى جنب. الحبّ هو القدرة على أن تصمت مع آخر. والوقت الذي هو نسيج الحياة البشريَّة يقدِّم آنذاك عطرًا زكيًّا يفوح. ولا سبيل البتّة إلى الاحتفاظ

بالناردين الذي يفوح، كذلك لا سبيل إلى الاحتفاظ بالوقت الذي ينقضي ويصبح حبًّا.

لقد رأيت أصدقاء منهمكين دومًا بأشغالهم، ومفكّرتهم ملأى. غير أنّهم، يوم وقعوا ضحيَّة الحبّ، وجدوا الوقت... وقتًا يُضيِّعونه وآخر يقتسمونه مع مَن يحبُّون بشكل مجّانيّ. وُجد الوقت لكي يحترق كالبخّور. إنّه يُغني ويُنعش كالجدول الذي يعدو في قلب الصيف، كالماء الحيّ ينسَلُّ بين أصابعنا، وكلّ مَن أراد أن يقبض عليه يحصد الفشل والوحشة.

مَن أراد أن يفهم الله، يجب أن يتحلَّى بروح فنَّان وقلب عاشق. عليه أن يقبل بقضاء ساعات من التطلُّع والتأمُّل والتعجُّب، وعلى مثال هاوي الكنوز، أن يكون مستعدًّا استعدادًا جنونيًّا إلى أن يبيع كلّ شيء ويشتري الدرّة الثمينة. جنون؟ أجل، إنّه لعمل جنونيّ في نَظر مَن لم يقع قطّ ضحيَّة العشق للدرّة الثمينة.

أَوليس الإنسان ذلك المُصاب بمسّ من الجنون القائم بمثل تلك الحركات؟ يستحيل علينا أن نعرف الله، إذا لم يكن فينا سوى الحساب والعقل. مع الإنسان العاقل «Homo Sapiens»، يبرز درهمٌ من الجنون في هذا الكون المتناهي في تنظيمه. الجنون والإفراط يدخلان معًا. لقد خدعونا، عندما أبرزوا لنا في الإنسان الجانب العقليّ دون سواه، في حين أنّ الفنّ والحبّ هما التعبير عن شيء آخر جوهريّ أيضًا، أقرب إلى الجنون منه إلى العقل.

وهل من عجب بعدُ في أن يكون الإيمان غير نافع ومجّانيّ؟ لو أنّ الله قابل للاستهلاك، لَمَا استحقّه الإنسان لكثرة نفعه. بيد أنّه غير نافع، ولهذا السبب فهو جوهريّ. والصلاة إذ ذاك هي مدى للمجّانيَّة والاحتفال، زمنٌ ينقضي في سبيل الله انقضاءً لا فائدة منه. لقد وضع يسوع حدًّا لملاحظات يهوذا الذي اغتاظ بسبب التفريط بذاك العطر

الثمين. والإنسان لن يكون إنسانًا إلاّ إذا كان قادرًا على مثل ذلك التفريط. وحده في مسيرة الخليقة قادر على أن يبلغ ذلك الجنون.

لا يسألنَّ أحد عن فائدة الله... لا شيء فيه... لا نفع له. ولكن حذارِ من أن نفقد معنى اللانافع والمجّان!

هلاَّ حافظنا دومًا في الإنسان على حديقة العيد والجنون. لا يمنعه أحد من أن يغنّي وحده في زاوية. نحن ما خُلقنا لنكون منتجين، بل سعداء.

السعادة شيء لا يُشترى ولا يثمَّن، ولا نجدها على لوحات إحصائيَّة. إنّها الشيء غير المنتظَر وغير المرجو، الذي لا يمكن تقديره حسابيًّا. وهو ما يتفجَّر كينبوعٍ في قلب الزمن المقبل، فيرقص كلهيب نارٍ، لا يتعب الإنسان من النظر إليه، ويشدو كالنسيم، لا حقّ لنا فيه ولا يمكن الحصول عليه عنوةً. إنّما كالهديّة نقبله ونستقبله، كما نستقبل باقة زهر ونستطيبه كطعام العيد. ويعرض للإنسان في أغلب الأحيان ساعة لا يتوقع حضوره أحدٌ، ويتغلغل في قلب الزمن الضائع وفي قلب المجَّانيَّة، ويولد حيث يقيم اللانافع وغير الضروريّ. إنّه على صورة الله.

إلهي الذي لا نفع له

غالبًا ما يحوِّل الإنسان الله إلى ما هو نافع، بيد أنّ النفعيَّة لا تتزاوج مع الإله الحبّ. فمن الضروريّ، ومهما كلّف الأمر، أن تُنقل قضيَّة الله، التي، إذا بقيت في إطار النافع، تقودنا إلى طريق مسدود. أمّا إذا وضعناها في صميم المجّانيَّة والفيض وعلى وصال بالحبّ والفنّ والعيد، فستقودنا مباشرة إلى السرّ الذي لا يوصف.

لقد استخدم الإنسان الله طويلاً لسدّ فراغات العلم. بدلاً من أن يتأثَّر بذلك النشيد العظيم الذي يتمثَّل في أخبار الخلق، راح يبحث فيه عن معلومات حول تكوين العالم، وجعل من الخالق أوَّل الممارسين لهذا العمل،

فقادهم هذا التصوُّر إلى طلاق بين الإيمان والعلم. ولا يزال الكثيرون اليوم يجهلون أنّ العلم والإيمان يتحرَّكان في نطاق خاصّ بكلّ منهما، ولا يتنافسان، فالعلم يبحث عن كيفيَّة الأشياء ليتمكَّن منها ويسيطر على العالم بالتقنيَّة. أمّا الإيمان فإنّه يقبل معنًى ويقبل سببًا ويعطي الوجود نفحة حياة. ومَن ذا الذي يجعل العلم والحبّ في تنافس؟ ولِمَ يخترع الإنسان منافسات بين العلم والله؟

وجعلوا الله رجل أمن فأناطوا به مراقبة الملعب الكبير الذي فيه يعيش الناس، لكي يعطي النتائج في نهاية الدورة فيكافئ الصالحين ويعاقب الأشرار، معتمدًا في حكمه خلقيَّة دقيقة ومنضبطة وموضوعة بشكل نهائيّ. إنزعج يسوع من هذا الجوّ، فكشف للفرّيسيّين عن موقفهم المختلف كلِّيًّا عن موقف الله الآب، فانتقدوه على معايشته الخطأة والتسرُّع في الصفح عن خطاياهم. إنّ الله يضع وقتًا طويلاً في خدمة الخطأة، وإذا لم تتجاوب نعجة مع ندائه، جدَّ في إثرها. إنّ شارل بيغي يتحدَّث في صفحات رائعة عن رجال الله قائلاً: «ها هوذا خاطئ يوازي أقلّه تسعةً وتسعين بارًّا، ولعلّه يوازي أكثر من ذلك، فإنّ كلّ شيء ممكن. عندما يزلّ أحدنا لا يعود يعرف إلى أين يذهب»(١). وقد نتمنَّى لو أنّ الله يبقى المنفِّذ لبرّنا غير الممكن ويستجيب رغبتنا في أن نقدِّر حقّ قدرنا؟ بيد أنّ الملكوت ليس مسألة ميزان وأوسمة، إنّما هو عيد للابن الضالّ.

بعض الناس يرغب في أن يمنع الله عنه الموت، وقد يُفقد الإيمان الموت طابعه المأساويّ ويزيلُ الخوف عنه. بيد أنّ الإنسان ينسى صرخة يسوع الرهيبة على الصليب: «إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟» (مرقس ١٥: ٣٤). الإيمان المسيحيّ لا يمحو الموت، بل يركِّزه في صميم الحياة: «إنّ حبّة الحنطة، إن لم تقع وتمت في الأرض...» (يوحنّا ١٢: ٢٤). الموت هو

(١) شارل بيغي - Charles Péguy, *Le porche du mystère de la deuxième vertu*, Paris, 1975, p. 606.

في قلب إيماننا، أليم وباعث للشكّ أحيانًا، حتّى إنّه دخل في قلب الله. والحربة بيد لونجينيوس اخترقت ما هو أبعد من قلب المسيح، فوصلت إلى الله وحتّى الثالوث[1].

ولِمَ البحث عن فائدة في الله، ما دام الإنسان قد اكتشف سرّ الله في قلب اللانفعيَّة والمجّانيَّة؟ وهذا السرّ يتّجه صوب الينبوع الذي منه تتفجَّر الحياة. «ليس الله شيئًا نصل إليه بواسطة الاختبار أو الاستنتاج. إنّه المجّانيَّة المطلقة والشاملة التي تحكيها لنا العلامات وتُشتشفّ وتُدرَك بعيدًا عن أيّة علامة»[2]. وتلك المجّانيَّة، التي هي الله، هي الدعوة الأخيرة للإنسان، إذ إنّ الله يطلب من الخليقة أن تشترك في حياته دون حساب.

الكون هبة مجّانيَّة والإنسان هديَّة مجّانيَّة. إذ ذاك، تبرز كلمة «الشكر» ويولَد يسوع في صميم الحياة المسيحيَّة، لأنّ الشكر لا معنى له إلاّ ردًّا على عمل مجّانيّ. عندما يشكر عبد معلِّمه على الخبز الجافّ والماء الذي يقدِّمهما له، فلا يشكره عرفانًا لجميله، بل إنّ شكره له نابع من خوف العبيد ولياقة صادرة عن خوف. واجبٌ الشكر على ما ليس لنا به حقّ، الشيء الإضافيّ الذي هو ثمرة عطف ومحبَّة.

إن امتلأت حياتنا فرحًا ولم يكن وجودنا واجبًا وأُعطينا الكون عفوًا، بلا سبب ولا ضرورة، إذ ذاك نرفع الشكر إلى الذي اكتشفنا سرّه وعرفناه، فهو الذي نسمِّيه «الله»، سبب كلّ مجّانيَّة وينبوعها المطلق. سأل مِيتيا Mitia في رواية **الإخوة كرامازوف** لدوستويفسكي: «ماذا نعمل لو لم يكن الله موجودًا؟» إذ ذاك يكون الإنسان ملكَ الأرض والكون... ممتاز. ولكن إلى مَن نتوجَّه بحبّنا؟ ومَن ذا الذي نرفع إليه عرفان الجميل أناشيدَ؟

(١) بول كلوديل - Paul Claudel, *L'épée et le miroir*, p. 256.

(٢) جوزف توما - Joseph Thomas, *Croire au Vrai Dieu*, Paris, 1975, p. 94.

«إرسم لي خروفًا...»

«العمل الإلهيّ أعظم من أن يتناوله البشر بكلامهم، ومن هنا تنشأ صعوبة الكلام وضرورته»[1].

إن كان الله غير نافع، فالكلام الوحيد الذي يُسمح لنا بالاقتراب منه يحمل هو كذلك توقيع اللانافع. تلك هي حال الشِعر حيث تمرح الألفاظ بحرِّيَّة، وحيث التسلُّط والرغبة في الإعجاب مرفوضان. يفتح الشعر باب التحدُّث عن الله دون أن يهتك سرّه. كلّ كلام لا يُقصد منه النفعُ يُبقي السرّ على حاله. وذاك هو الداعي إلى تسجيل الكتاب المقدَّس على ذاك النحو.

إنّ كتاب **الأمير الصغير**، الذي وضعه أنطوان ده سانت إكزوبري، أدخلني في هذا الكون. لا يفكّر الراشدون «الكبار» إلاّ بالأرقام، ولكي يقتنعوا بوجود ذلك الإنسان البسيط، يترقبون رقم بُرجه، في حين يعشق الأولاد الأمير الصغير، عندما يعرفون أن شَعره هو بلون القمح.

«إرسم لي خروفًا...» فإذا بالطيَّار يرسم له قفصًا... حصولاً على السلام، وعلى الأمير الصغير أن يتخيَّل الخروف الذي في داخله! لكنّ صاحبنا خرج من ذاك الامتحان مرتاحًا لكونه وجد مجالاً لخبرته الشخصيَّة.

«كلّمنا عن الله...». وقد يحاول أن يرسم الله كما يرسم خروفًا، ويحدِّده بمفاهيم له دقيقة. غير أنّ الله ليس ممَّا يُحصر في إطار، بل هو مَن نلتقيه. إنّه حبّ يقدَّم إلى حرِّيَّتنا. وحده الشاعر يستطيع التكلُّم باحترام عن الحبّ، لأنّه لا يصادر الألفاظ، بل يقدِّمها لنا مملكة لكي نكتشف معالمها. كم من المتصوِّفين العظام، أمثال القدِّيس يوحنَّا الصليب والقدِّيسة

(١) القدِّيس لاون: **العظة التاسعة في ميلاد الربّ**.

تريزيا الأفيلية، كانوا شعراء كبارًا؟ أيّها الشاعر، أنت لا تفسّر شيئًا، بل كلّ شيء بك يصبح قابلاً للتفسير[١].

في الرياضيّات، تنتهي المشكلة عندما نجد لها حلاً. أمّا بشأن الله، فإنّنا نواجه ما لا يُسبَر له غور، ولا يمكن استيعابه، ولا يسع للكلمات أن تصل بالإنسان إلاّ على عتبة السرّ، كما كان القفص يُسلم الخروف وهو يُخبِّئه، وسرعان ما تلتزم الكلمات الصمت، مفسحةً في المجال أمام الصمت، صمت مَن يتعجَّب أمام ما لا يوصف في نشوة وعبادة. لا يسعنا أمام الله إلاّ أن نقف حائرين مشدوهين. إنّ كلمة سرّ «Mystère» مشتقّة من لفظة يونانيّة تعني «لزوم الصمت».

«ليتني أشقّ في الصفحة الجرداء أثلامًا من الدموع وأزرع الكلمات
تتحطّم تحت ثقل الكلام،
وأروي حياتها من دمائي، تُصبح أزاهير صامتة،
وأجعل منها باقة تَضْخم بنَفَسٍ منّي، فأُقدِّمها إليك أخيرًا ورودًا خرساء»[٢].

على مَن يريد أن يتكلّم عن الله أن يكون شاعرًا، ولكن ليس ضروريًّا أن يكون من فئة الاختصاصيّين، إذ في صميم كلّ إنسان حفنة من الشعر، مدًى تتحرّر فيه الألفاظ من قيودها وتحاول تسمية الجوهريّ، حسب الإنسان أن يعشق لكي يكون شاعرًا، أليس كذلك؟

بالعماد والتثبيت ينال المسيحيّ الروح القدس الذي يسبر أعماق صمت الله. لا يقوم الإيمان على حفظ مبادئ الحزب عن ظهر القلب، بل على الولوج إلى الأوقيانس الإلهيّ الفسيح، حيث يتحقّق الإنسان بنفسه من ذلك، محمولاً على جناح رياح الحرّيّة.

(١) كلوديل - Paul Claudel, *La Ville (2ème version), Acte I,* La Pléiade, 1967, p. 428.

(٢) دانيال فلُورينيي Danielle Florigny

تكلّم يسوع بالأمثال، ومَن كان ينقصه روح طفل وقلب شاعر لم يتمكّن من فهم الإنجيل فهمًا كاملاً. على مَن أراد أن يفهم قصيدة أن يتسلّح بالحرّيّة التي تقبل الكلمات وتتركها تتجاوب في صميمها. من شأن الألفاظ أن تنبّه، ولكن ليس رغمًا عنّا. المؤمن شاعر استلقى بين يدي الله.

وما هو دور اللاهوت؟ وسائر كتب العلماء عن الله؟ إنّها لَهَامّة، وهي أشبه بالعوّامات التي تُزرع في البحر لدرء خطر الغرق عن السفن. بيد أنّ جفافها يحمل الإنسان على عدم الاكتفاء بها. ومَن ذا الذي يكتفي بخريطة في دليل ويحرم نفسه من التمتّع بالمناظر الطبيعيّة؟

إنّ اللاهوتيّين الأصليّين لا يدّعون تحويل الله إلى مجموعة عقائد. غير أنّهم، إذ يحافظون على الوصال بين كلمة الله والتقليد المسيحيّ الذي يستقي من تلك الكلمة، يجنّبوننا نحت التماثيل للأوثان.

ينقل إلينا التقليد كلمة الله وما أغنَتْها به الأجيال. والإيمان هو مسيرة شعب بكامله، وهو رحلة فريدة لم تبدأ معنا، بل بدأت منذ أمَد بعيد، عندما مزّق الله الصمت الذي كان يلفُّه لكي يوجّه إلينا كلمته.

* * *

أنا لا أبتغي الاستغناء عن **العقل والذكاء**، عندما أتحدّث عن الله لأُحلَّ مكانهما العاطفيّة والشعوريّة، بل إذا كان الله هو الذي خلق العقل، فإنّ ما يفرضه العقل هو أن يتوَّج بفعل الإيمان. وكلّ إيمان يحتقر العقل لا يصلح لأن يكون جديرًا بالإنسان ومن ثمَّ بالله أيضًا.

على أنّ العقل نفسه يدعونا إلى أن نتجاوزه. يقودنا إلى عتبة كلّ شيء فيها صمت وسرّ مجّانيّة. الزهرة تُزهر حبًّا للإزهار. ذاك هو الحبّ. يحبّ الناس بلا سبب، ومن المعقول هو ذاك الحبّ، ولا يعني هذا الحبّ إنكار العقل، بل تجاوزه.

تفكيرنا ذاك لا يمكن أن يكون إلاَّ في عملٍ حرّ. **والحرِّيَّة** نقطة انطلاق لأنّني بحرِّيَّتي أتساءل عن وجودي وأُصغي إلى تساؤلي وأتدرَّج بحرِّيَّتي في التساؤل، واثقًا بما أحصل عليه من معنى، وأقبل حرًّا كذلك بأن أتجاوز العقل في نهاية مسيرتي لأغوص في السرّ الذي لا يوصف.

وليست تلك الحرِّيَّة بغريبة عن الطريقة التي أحيا بها حياتي وليست قضيَّة الله جزيرة صغيرة معزولة، حنيَّة في النفس من الضيق الميتافيزيقيّ، منفصلة عن طريقة مجازفتي بالوجود، لأنّه، إذا كان الله بجانب المجّانيَّة والوقت الضائع، فهو أيضًا بجانب الموت. إيماني بالله يعني، في نهاية الأمر، استعدادي لتقديم حياتي حبًّا بلا ثمن وهو التخلّي عن أن أعتبر ذاتي محور الكون. الله محبّة وقدرة على الانسحاق ولا يستطيع الإنسان أن يعرفه إلاَّ إذا انسحق حبًّا في سبيل الآخر، والله هو بذل الذات ولا يمكن للإنسان أن يلتقيه إلاَّ إذا بذل نفسه وبالتالي خسرها.

صلاة لا نفع لها

«لا يمكن للإنسان أن يقوم بفعل عبادة أصيلة ومجّانيَّة إلاَّ إذا قام به تجاه إله لا حاجة به إليه».

(الأب فرنسوا ڤاريون)

وليس الله منتجًا، بل ترف في مجتمع لنا يعشق الإنتاج. إنّه اللانفعيَّة السُّمْيا في عالم يسعى إلى ما هو فعّال، وهو مجّانيَّة بحتة يشوِّهها سباقٌ لنا نحو المال. إنّه من نوع الحبّ. والحبّ أشبه بخشخاش الحقول الرائع والسريع العطب. وما من شكّ في أنّه لا ينفع، على أنّه فريد من نوعه.

على المسيحيِّين أن يكتشفوا مرّة أخرى أن لا نفع لله، ولربَّما وُجدت هذه اللفظة قاسية، ومن المفضَّل أن يُقال إنّ الله هو الذروة في

المجّانيَّة، وكلاهما واحد. لا شيء يُفقد الإنسان إنسانيَّته كالركوع أمام أصنام صنعها. الصنم إله مصنوع بوزن وقياس، إنّه إله نافع...

إن كان الله إلى هذا الحدّ غير نافع، فلِمَ الصلاة؟ لا تنفع شيئًا. إنّها بالحقيقة ذاك العمل الكامل المجّانيَّة. وتبرز عندما نتجرَّد عن السعي إلى لقاء نفوسنا ونلتقي الله بعيدًا عن كلّ محاولة فاعلة. إنّها عبادة قبلَ كلّ شيء.

والعبادة هي الصلاة التي لا تنفع شيئًا، إنّها لترتفع، عندما لا يجد الإنسان الكلمات، وتصبح الأفكار العلميَّة نافلةً، حينذاك يملأ الله قلبه. وحسبُ الإنسان أن يكون الله موجودًا وحسبي أن أكون متشبِّثًا من حضوره.

العبادة هي أن تُدرك، ولو لبرهة هاربة، أن لا وزن لأيّ شيء أمامه وأنّ كلّ شيء يزول أمام حضوره السامي. إنّها الوقوفُ وجهًا لوجه مع إله لا يحاول الإنسان أن يستعبده أو يستخدمه، فيبطل كلّ حساب وكلّ مساومة ونقاش. وليست سجودًا ينزع عن الإنسان إنسانيَّته ولا ركوعًا على الركبتَين كما يفعل العبيد، بل اعتراف بإله فيّاض الخير.

لا مجال للكلام ولصيغ يستعملها هذا النوع من الصلاة، لكن الصمت يتكاثف تعجُّبًا وتواضعًا.

ليست العبادة عُتْهًا ولا تصوُّفًا، بل اكتشاف قيمة الأشياء على حقيقتها بسبب المعبود. فالحبّ يتفتَّح دومًا في الصمت فنقبل الآخر كما هو، فرحين بما هو عليه. لِمَن يحبّ لا شيء يبقى سوى محبوبه، أو بالأحرى كلّ شيء قائم به. والمحبّ يكتشف أنّ كلّ ما فيه هو من محبوبه، وخارجًا عن هذه العلاقة، يصبح النور شاحبًا والأفراح جوفاء.

ما من كلمة تقوى على التعبير عن رعشة قلب وعن الله، ذاك المطلق، حيث لا يبقى سوى الحضور الخالي من الكلام والحركات، بعد أن

يتوقّف كلّ عمل، مفسحًا في المجال أمام حضور بسيط يتجسّد انذهالاً وعرفانًا للجميل.

العبادة هي الصلاة المجّانيّة المثلى التي لا يبقى فيها مجال لأيّ فكر جديد ولا لأيّة عاطفة عارمة، بل يتعاظم فيها الحضور الإلهيّ الأكيد الكافي مبعثًا لكلّ سرور.

والحرّيّة أيضًا، لأنّ العبادة تُبقي النفس منفتحة والأفق حرًّا، ولا يستطيع الإنسان أن يتمسّك بالأشياء ولا بما صنعت يداه، حتّى لا يعود يرى سواها، وقد يصبح أسيرًا لها. في الوصايا العشر، راحة السبت المقدّسة دعوة إلى التخلّي عن العمل حتّى إنّ الإنسان ينسى أن يسبّح الله الذي جعلنا أسيادًا على المخلوقات. فتذكّرنا راحة يوم الأحد بأنّ النفس مخلوقة للمدى الفسيح وأنّ العبادة وحدها هي التي تقدّم للإنسان مجالاً للتنفّس.

على مدى النهار نعدو وراء الزمن، ولكن ها هي الساعة التي فيها نقدّم الزمن، إذ ماذا نستطيع أن نقدّم لله ما هو أكثر التصاقًا بشخصيّتنا من وقتنا، لكي نقول له: «أنا هنا لأنّك هنا!» بعيدًا عن كلّ إنتاجيّة؟

«كلّما أصبح الإنسان إنسانًا التهمَتْهُ الحاجةُ وأحسّ بحاجة أكثر وضوحًا ورفاهيّةً وترفًا إلى العبادة»[1]..

سألتُك نعمةً أن تسمح لي بأن أستريح برهةً إلى جانبك. أمّا الأعمال التي بدأتها فسوف أُنهيها لاحقًا. هذه هي ساعة الراحة والفناء وجهًا لوجه معك، وهذه هي ساعة تكريس حياتي في صمت ساعات الفراغ الوفير»[2].

غالبًا ما نُصاب بالإحباط عندما نصلّي، لأنّ الجِلْدَ لم يتجاوب معها... نفتقد فيها الأفكار الحديثة والتعابير الجميلة، وهذا صحيح لأنّها

(١) تيار ده شاردان - Teilhard de Chardin, *Le milieu divin*, Paris, 1957, p. 57.

(٢) طاغور، **قربان الأغاني** - *L'Offrande Lyrique*, Paris, 1963, Poème 5.

أحيانًا كثيرة تحمل معها ما يخيّب الأمل. من حسن الحظّ أنّنا نستطيع أن نخلط بين الله وما لا وجود له. هلاّ اختبرت في حياتك عجزك عن أن تتخلّى عن الصلاة بالرغم من كلّ شيء. إذ ذاك تُدرك معنى محبّة الله. فوق كلّ شيء هو الذي غالبًا ما يتّخذ حضوره شكل الغياب. إنّه دومًا ذلك البعيد عنّا جدًّا لأنّنا نريده قريبًا منّا جدًّا. إنّه الغياب الأمثل لأنّه الشكل الأمثل للحضور. وحدها الكائنات التي نحبّها غيابٌ يعمّق الشوقَ وتبقى مسافةٌ بيننا وبينها، مسافة يفرضُها الاحترام وعدم التملّك ومجالٌ من الخفر البشريّ والشوق، علمًا بأنّ غياب الذين لا نحبُّهم جيّدًا يمرّ مرور الكرام.

إبراهيم

لقد دُعي إبراهيم إلى أن يعبد الله، وكان له ولدٌ وحيد، انتظر مجيئه طويلاً ووضع كلّ آماله في ابن الوعد، ذاك الذي وهبه الله له إخصابًا له في خضمّ إحباطاته، وظهر له ملاك الربّ طالبًا منه أن يذهب إلى جبل عالٍ ليقرّب إليه ابنه إسحق، الضمانة الوحيدة لاستمرار ذرّيّته والأمل الوحيد له في المستقبل.

أصغِ، يا إبراهيم، فمستقبلك في الله الذي وحده يستحقّ الثقة. فلا يسعك أن تظلّ متمسّكًا بعطاياه، ولا يمكنك أن تظلّ أسيرًا لأيّ إنسان أو لأيّ شيء آخر، حتّى لابنك، ولا تظنّنّ أنّك، بسيطرتك على حياتك وعلى كلّ ما لديك من ضمانات، تستطيع أن تخلص. الله وحده، يا إبراهيم، الله وحده.

قد تأتي أيّام تنبذ عنك كلّ مشروع وكلّ عمل، وإن كان ابنًا لك. ولا شيء يملأ قلبك الذي فتحه الله، وسوف يأتي يوم لا شيء يروي الظمأ الذي يتفاعل فيك بقدر ما ترويه.

سعيدٌ أنت، يا إبراهيم، لأنّك عدت إلى الطريق القديم. لقد تركت بلادك، واليوم تتخلّى عن آخر يقين لك، وهو الابن الذي أعطاك الله إيّاه، وتنطلق لتقدِّم إليه الحزم الأولى لحصادك وبواكير بستانك.

لربّما ينقصك حسنُ الإدراك. وهل يعطي الله ليسترجع ما أعطى؟ وهل يتردَّد في أن يؤمِّن للإنسان سعادته؟ ألَم تخطأ في تحديد العنوان؟ وهل يكون إله المواعد إلهًا وهميًّا، مولوخ العظيم الذي يبتلعنا ويلتهم مالنا؟

ومع ذلك أنت تسير. لقد وثقت في النهار ولم تسحب ثقتك ليلاً؟ وهل يمكن للإله في مسيرتك أن يقودك إلى متاهة لا نار فيها ولا مكان؟

أُبسط يديك يا إبراهيم، ولا تحبس عطايا اللّه عن سواك، ولا تكن لها مالكًا، إذ لا يمكن لله أن يتحوَّل إلى رأسمال. كن، في كلّ برهة، قابلاً لكلّ ما يقدِّم لك، وفي كلّ مكان قابلاً لِمَا هو، وكُنْ عابدًا.

ها أنت على الجبل وها هو ابنك يُعاد إليك، هو ابن الوعد. أمَّا أنت، يا إبراهيم، أفلَم تضع حدًّا لذلك الوعد؟ ألَم تكتفِ بما أُعطيتَ، في حين أنّ الله وعدٌ مستمرٌّ يتجاوز دائمًا ما يضع بين يديك من عرّابين؟ لقد خفت ألاَّ يعيد الله إليك ابنك. أمَّا هو فقد أعاده إليك وعدًا جديدًا وأملاً جديدًا. لم يكن عليك أن تضحّي بابنك يا إبراهيم، بل بحقِّك عليه (سفر التكوين ٢٢).

مَن ذا الذي يعطي الله من وقته كما أعطى إبراهيم وحيده؟ الله أعاد إلى إبراهيم ابنه وسيقدِّم لنا الأبديَّة.

إيَّاك أعبد

عندما تتفتَّح أعجوبة الكون وتكتسي الوجوهُ والقلوبُ جمالاً، وتُطلق سمفونيَّة المخلوقات فيَّ نشيد الفرح، إذ ذاك أسجد لك يا إلهي.

وعندما يلفّ الصمت دقّات قلبي، وتستريح الأرض في فراغ الليل،

ويضحي كلُّ شيء ساجيًا لا حِراك فيه، إذ ذاك أسجد لك يا إلهي.

وعندما تشُبُّ الحياة، سخيَّةً، لا نفع لها، وتتفجَّر أناشيدُ العيد، ويُعلن كلُّ ما في الكون نشوته بالوجود، إذ ذاك أسجد لك يا إلهي.

أنت أيُّها الحاضر دومًا أمامي لا تفتأ تبتعد عنّي وتتجاوزني،

يا مَن لأجله يجب أن أتخلّى عن كلّ شيء، أيُّها الجوهريّ والضروريّ الوحيد،

يا مَن إليه نسير، وأيدينا مفتوحة ومبسوطة،

أيُّها النور الذي لا يطاله أحد، المُشرق في أفق ظلماتنا، يا من يضيء طريقنا اليوميّ،

يا إله كلّ حبّ، إنّي أسجد لك.

أيُّها المجهول في قلب كلّ مجّانيَّة، يا ينبوع كلّ جمال، وفيض كلّ وفرة

أيّها الكنز المخبّأ في حقلنا والدرّة التي يجدها المسافر

يا إلهًا منذ الأزل، إنّي أسجد لك.

إقبل أُولى حُزم غلّتي والمجالات الفارغة في لياليَّ

إقبل نشوة غبطتي ودموعي في أيّام الحزن،

ضُمَّني بذراعيك الحنونَين، يا إلهي،

لأنّك معبودي.